القصة الأولى ـ حب وألم

ابتهال شلبي

بعد صمت طويل خيم على جلستنا رنّ جرس الهاتف وكسر ذاك الصمت القاتل؛ نهض من مكانه وركض إلى الهاتف وحمل السماعة بكل لطف وحنان وكأنه يحمل طفلاً صغيراً بين يديه القويتين الحنونتين.. جلس على الأريكة وبدأ يتحدث بصوت منخفض حاولت جاهدة أن أعرف مع من يتحدث ولكن عبثاً كان صوته منخفضاً جدا. ولم أستطع سماع شيء، أخذتُ جهاز التلفاز بحجة تغيير المحطة، خفضت الصوت قليلا علني أعرف مع من يتحدث. نظرتُ إليه وكانت ملامح وجهه تتغير وتتبدل.. تارة يضحك وتارة يغضب ومرة أخرى يرتسم الحزن على وجهه.. وبعد جهد عرفت مع من يتحدث إنها صديقتنا في العمل وهي لا تقل عنهُ فلسفة وذكاء.. فهو متحدث بارع وهي أيضا كذلك، ها هو مسترسل في حديثه دون ملل أو تعب ها قد مضى من الوقت نصف ساعة. فجأة توقف عن الكلام وقال لي: أحضري لي كوبا من الشاي. حسنا دقائق مضت وكان الشاي على الطاولة...لكنه لا يعي ماذا يشرب إنه غارق في الحديث.. جلستُ أنتظر أن ينهي مكالمته وأنا أموت غيرة وقهراً. فجأة نهض من على الأريكة وقفز قفزة عالية، وضحك ضحكة ملأت الدنيا فرحا وسعادة وكأنه طفل صغير عادت إليه أمه بعد طول غياب..

قال إنه أجمل خبر سمعته في حياتي كلها ومن ثم تمتم ببضع كلمات بصوت منخفض ثم أغلق سماعة الهاتف.. نظر إلي وقال : هناك أمر يجب أن أخبركِ بهِ، لقد حان الوقت لكي تعرفِين كل شيء.. رأيتُ في عينيه الحزن والفرح قد امتزجا معا ليشكلا لوحة رائعة فريدة من نوعها. قال لي والأسى قد بدا على وجهه: أريدك أن تعلمي بأنه مهما حدث ستظلين حبي الأول وحب حياتي وشمسي التي لا تغيب، ولكن أحيانا نجبر على القيام ببعض الأمور من أجل أن تستمر عجلة الحياة، لم يكن الأمر سهلا علي أبدا، ولن يكون كذلك عليك أيضا.. ماذا هناك يا أحمد؟ أخبرني ماذا تريد أن تقول..؟

_لا أدري من أين أبدأ..

_قل لي ماذا هناك أرجوك..؟

_في الحقيقة لقد تزوجت منذ أربعة أشهر تقريبا من صديقتنا أماني، أنتِ تعرفينها صديقتنا في العمل، وهي الآن حامل في الشهر الثاني، لذلك قررتُ أن أخبرك..

غضب القمر وهرب مبتعدا عندما سمع الخبر، اختلج جسدي كعصفور يحتضر، غبتُ عن الدنيا وشعرتُ بماء مثلج قد سكب على جسدي النحيل.. رفرفتُ بأجنحتي الضعيفة وحلقتُ في الفضاء هاربة من قسوة الحياة، خرجت روحي من جسدي متمردة على الظلم.. ماتت الفراشات في الحقول وغابت الشمس من الوجود، بكت السماء ألما.. حزنت الأسماك في أعماق البحار وهجرت النوارس

الشطئان غاب الفرح عن عالمي الصغير ماتت البسمة فوق شفاه الأطفال أطفأت المصابيح أنوارها وحلَّ الظلام على العالم بأسره.. أعادني للحاضر المر من جديد قائلا: ما بكِ؟

صامتة لا تجيبي، أسمعيني صوتك، تكلمي قولي شيئا.. أنتِ تعلمين بأني صبرتُ خمس سنوات وأنا أحلم بعصفور يغرد ويرفرف في هذا البيت الحزين ليملأهُ فرحا وحياة، ولكن الأطباء أكدوا بأنه لا يوجد أمل للحمل أبدا، وكان من حقي أن يكون لدي طفل يحمل اسمي من بعدي، وأريدكِ أن تعلمي أني أحبك ولازلت وسأظل أحبك مهما حدث.. هيا تكلمي قولي شيئاً، قالت بحرقة والقلب يعتصر ألما:

ليس لدي ما أقوله، ولكن أريدك أن تعلم بأن (الحب والخيانة لا يجتمعان) إن ما فعلته خيانة يا أحمد، لقد خنت حبنا الكبي،ر كان يمكنك أن تنتظر قليلا، فأيامي في الحياة معدودة كما أخبرني الطبيب.. ماذا تقصدين يا سلمى؟ لقد أخبرني الطبيب منذ ثلاثة شهور تقريبا بأن لدي مرضاً خطيراّ في الدماغ وقد وصل إلى مراحله الأخيرة حيث لا ينفع العلاج، وستكون أيامي معدودة، وأنا حقا أشعر بدنو أجلي. ماذا تقولين يا سلمى؟! لابد أنكِ تمزحين لا بل تكذبين إنها ردة فعل ليس إلا، أليس كذلك.. لا يا أحمد إنها الحقيقة، أنا لم أكذب عليك في كل حياتي.. لذلك أرجوك طلقني، دعني أعيش بسلام ما تبقى لي من أيام في هذه الحياة البائسة.. دعيني من هذا الهراء ياسلمى، لابد أن الطبيب قد أخطأ في التشخيص، سوف أذهب بكِ إلى أفضل

الأطباء في العالم.. لقد فات الأوان يا أحمد، لقد فـات.. لـذلك أرجـوك طلقنـي.. لا يمكنني ياسلمى، لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني أن أنطقها ..لم يكن صـعباً عليـك ما فعلت بي.. أرجوك يا أحمد كفاني عذابا وقهـرا، لقـد تعبـت.. طلقنـي أرجـوك... أبهذه البساطة تتنازلين عن حب دام سبع سنوات؟ أتنسين الأيام الحلوة التي قضيناها والأحلام التي اتفقنا على تحقيقها، أين عهدنا بأن نبقى معا إلى أخر لحظة في حياتنـا؟. سلمى أنا أحبك من كل قلبي ولم أتزوج إلا من أجل الطفل.. نساء الأرض كلها لـن تملأ حياتي سواكِ.. وأعدكِ بأن طفلي سيكون طفلكِ أيضا.. أريدك أن تبقى قربي بقية عمري في حلوها ومرها، أريدك أن تكونِي مصـباحاً ينـير حيـاتي.. بـدا وجههـا دمـاً مسفوحا فوق ثلج أسود، الياسمين النائم في صدرها لم يعد ينشر ذلـك العطـر الـذي كان أحلى من رائحة الربيع. هـدأت أمـواج روحهـا المتعبـة وأرسـت بمركبهـا عـلى شطئان الحرمان لكن الجمر ظل ملتهب في جسدها الرقيق النحيل.. العشب الأخضر صار حزمة من نور أصفر.. سقطت سلمى أرضا كعصفور أصيب بسهم غـادر، بـل كفراشة أحرقها النور.. ركض أحمد حملها بين يديه كطفلتـهِ الصـغيرة.. نظـرت إليـه نظرة حب وسماح أغمضت عينيها الدافئتين وخلدت للراحة السرمدية..توسل أحمـد بنداء ضارع ذليل إلى رب السماء السميع البديع.. لكن للأسف فـات الأوان رحلـت سلمى بروحها الطاهرة.. كانت لغة الدموع هـي الوحيـدة المعـبرة عـن الألم والحـزن الدفين.